

الفلسطينيون - تخطي دائرة العنف

لوسي نسبية

لم تتسم المقاومة الفلسطينية خلال معظم المائة سنة الماضية بالعنف بقدر ما اتسمت باللاعنف. وعلى ضوء انتصار حماس في الانتخابات الفلسطينية الأخيرة. يخاطر الفلسطينيون من التعرض للإقصاء الجماعي واتهامهم بالعنف واستحالة التحاور ومعهم أكثر من أي وقت مضى. وتوجد في الحقيقة أشكال جديدة حية ومتنامية من اللاعنف النشط.

ويشمل اللاعنف بأسمى معانيه تحويل ضمير أحد الأطراف المعادية بطريقة يشعر بها هذا الطرف أن أفعاله غير أخلاقية ومن ثم يتوقف عنها، وعندما لا يفلح ذلك، يمكن أن تلعب الأطراف الخارجية (من دولة أخرى) دوراً فيها. وعلى نطاق أوسع يمكن اعتبار اللاعنف توكيداً على الإنسانية وتنمية للقوى الكامنة بدلا من الغرابات المضادة لها، ومثلما يولد العنف الكراهية ويؤدي إلى نشوء حلقة مفرغة وهمجية، يمكن أن يستخدم اللاعنف لكسر تلك الحلقة، ولذلك يعتبر اللاعنف كشكل من أشكال الدفاع عن الحقوق والتفويض الذي مكن الناس من النهوض - حتى في وجهة العنف الطاغي - والاحتفاظ بإنسانيتهم.

وإعالة عائلاتهم، وإرسال أطفالهم إلى المدارس دون خوف، ويمكنهم فيها التحرك بحرية من مكان إلى آخر، وأن يروا الشمس بدلا من الجدار، وأن يعتنوا بماشيتهم وأن يفلحوا حقولهم التقليدية. ويمارس معظم الفلسطينيون أشكالاً من اللاعنف النشط كل يوم ببساطة عن طريق محاولتهم البقاء أحياء،

لقد استخدم الفلسطينيون الإضرابات والمناشدات والمظاهرات باستمرار - وهي كلها أساليب لاعنف المعروفة - منذ بداية الصراع، أولاً ضد البريطانيين ولاحقاً ضد الإسرائيليين، والآن ومع معاناة البلاد من نقص في الضروريات الأساسية حيث لا يستطيع الأطفال أداء الامتحانات

التدريب على اللاعنف

يتخصص عدد متزايد من المنظمات المحلية في مجال التدريب على اللاعنف ونشاطات اللاعنف، وقد درب مركز الشرق الأوسط للديمقراطية واللاعنف نشطاء في ثمان مدن رئيسية في الضفة الغربية وهناك مدن أخرى في الانتظار.

في أوائل عام ٢٠٠٢، حضرت مجموعة من القادة العسكريين من حركة فتح إلى مركز الشرق الأوسط للديمقراطية واللاعنف تطلب تدريباً على اللاعنف من أجل كسر الحلقة المفرغة التي ترعرعوا معها - وهي حلقة مفرغة من النشاط والسجن، والمزيد من النشاط والمزيد من السجن - من أجل أن يمنحوا أطفالهم مستقبلاً، ومنذ ذلك الوقت أخذ عدد هؤلاء القادة في الازدياد. ورئيس حركة فتح في قلقيلية (إحدى أكثر المدن الفلسطينية تحفظاً) هو أيضاً رئيس مجموعة اللاعنف النشط في مركز الشرق الأوسط للديمقراطية واللاعنف هناك، والآن يوجد لدى مدينة طولكرم ونابلس والخليل - كل البلدات الفلسطينية الكبيرة - نشطاء

من التيار الرئيسي في المجتمع وينظمون ورشات العمل، وعمليات التدريب، ومخيمات الشباب التي تروج للديمقراطية (بالرغم من انعدام الديمقراطية في بعض هذه الأماكن)، وبدائل العنف، وبنصت الشباب في كل مكان بنهم إلى مسلسل اجتماعي إذاعي ينتجه مركز الشرق الأوسط للديمقراطية واللاعنف، ويركز المسلسل على القضايا الفلسطينية التي تروج لخيارات اللاعنف فيما يتعلق بكافة مجالات



Paul Jeffrey/ACT International

أو الذهاب إلى العمل رغم العواقب والمخاطر التي لا تعد ولا تحصى، وبينما تصبح القيود على الحركة والحياة اليومية قاسية بازدياد ويصبح الوضع السياسي ميؤوس منه بازدياد، أصبح هناك نمو موازي في اهتمام الفلسطينيين بالبدائل واختيار العنف كوسيلة للحياة وكشكل وحيد للمقاومة التي يمكن أن تنجح.

بسبب نقص الورق، ومع نشوء التوترات الدائمة بين الأحزاب السياسية التي بدأت في التحول إلى حرب أهلية، قد يبدو مفهوم اللاعنف الفلسطيني وكأنه يتسم بالتناقض لكنه مع ذلك واقع حي.

إن ما يرغب به الفلسطينيون أكثر من أي شيء آخر هو حياة عادية يستطيعون من خلالها العمل

المنظمة من المنظمات النسائية، إلا أن أثر هذه الفعاليات لن يكون محسوسا إلا بوجود اشتراك دولي وتغطية إعلامية، وإذا تمكنت النساء من خارج الشرق الأوسط من القوم كمرقابات دوليات لي شاهدن محنة الفلسطينيين ويتحدثن عما يشاهدن، فلربما يستمع العالم لأصواتهن، وربما يستطعن عندها تشجيع الإسرائيليات على المساعدة للتصويت لصالح إنجاح حكومة أكثر نزوعا للوفاق، وعلاوة على ذلك، إذا ركزت وسائل الإعلام على الفلسطينيين تركيزا أكثر مما هي عليه الآن، لربما يكون هناك أمل في وجود الدولة الفلسطينية الحيوية والحل العادل الذي راوغ الرجال إلى الآن.

دور الرأي العام

ولكي تنجح عملية السلام، يجب تشجيع الرأي العام على رؤية حقيقة ما يجري في كلا المجتمعين، وأن تتواصل الشعوب مع بعضها البعض وتتعامل كبشر، حيث أن أي الرأي العام السلبي لأي من الطرفين يؤجج النزاع ويُخلد دائرة العنف، وعلى العكس فإن الرأي العام الذي يؤيد الحل العادل للنزاع يمكن أن يساعد على تشجيع القيادة على دعم اتفاقية السلام، وفي ظل توازن القوى الذي يحايي إسرائيل، فإن الرأي العام الإسرائيلي يعتبر أحد مفاتيح السلام - ويتأثر الرأي العام ذاته تأثرا كبيرا بفهم وإدراك الرأي العام الفلسطيني، ويجب إقناع الرأي العام الإسرائيلي أن هناك رغبة عارمة وحقيقية في السلام عند الشعب الفلسطيني.

وبينما تمنح القيود المفروضة على الحركة في الضفة الغربية وغزة فعليا أي اتصال بين كل الإسرائيليين والفلسطينيين، باستثناء الأفراد الأكثر تصميمًا من الطرفين، تتمتع وسائل الإعلام بدور حاسم في نشر المفاهيم وتغطية الرأي العام والتلاعب بهما في هذا النزاع، فعندما يقتصر كل ما يقرأه أحد الأطراف عن الطرف الآخر على التصريحات الغاضبة فإن الخوف والاستقطاب، ويجب على وسائل الإعلام أن تقدم التقارير حول الرغبة المشتركة في السلام

حيث كنت أرشق مركبات الاحتلال التي تجوب شوارع مدينتي بالحجارة، واعتقلت لمدة ثلاثة أيام عندما كنت في سن الرابعة عشرة، وتعذبت عذابا مهينا أثناء احتجازي، وأصبحت أكثر عنفا ضد الاحتلال، وتطور العنف لدي على هيئة رد فعل انتقامي، حيث أنني تعرضت في الانتفاضة الأولى لسياسة «تكسير العظام» وأصبحت بأعيرة نارية وبجراح عدة مرات، وكدت ألقى حتفي في إحدى الحوادث، وبالرغم من ذلك فإنني حققت ما أردت في ذلك الوقت، فقد كنت بطل لشعبي، واستمر ذلك وكان له أثر على حياتي الاجتماعية حيث كنت أجد حولا لكافة مشاكلي بالعنف.

استمر العنف ليكون جزء هام في حياتي خلال الانتفاضة الثانية حتى مرت بتجربة جديدة، حيث التحقت بدورة تدريبية لمركز الشرق الأوسط للديمقراطية واللاعنف في مدينة نابلس وتعلمت قيم اللاعنف، ولم أتوقع أن يطرأ أي تغيير بسرعة بسبب التجارب القديمة التي مرت بها، ولكن عندما افتتح المركز فرعاً في نابلس تم تعييني رئيسا له، وانهالت علي أسئلة حول النزاعات الاجتماعية والسياسية، ولأول مرة في حياتي تأملت في أسباب النزاعات، ومنذ ذلك الحين عملت بجد مع الأطفال ولجنة الإدارة لتعزيز الديمقراطية واللاعنف في مجتمعي، وما أنني كنت أحد ضحايا العنف، فإنني أفعل كل ما بوسعي لمساعدة الناس، وخاصة الأطفال الفقراء، ليتجنبوا التجربة التي خضتها، وأصبحت مثلا يحتذى به الكثيرون من الشباب الذي يرغبون في معرفة المزيد عني وعن سبب اختيار لأسلوب اللاعنف. قيس عوايص، منسق مركز الشرق الأوسط للديمقراطية واللاعنف في نابلس

أصوات النساء

إن تاريخ اشتراك الفلسطينيات في أعمال اللاعنف في الصراع القومي الفلسطيني قديم جدا ويعود إلى بدايات الصراع، وبينما يستجيب الشرق الأوسط والعالم إلى العنف الذي يتسبب فيه الرجال، فإن ضرورة رفع صوت النساء لسمعها العالم أصبحت أعظم من أي وقت مضى.

وبالرغم من وجود بعض فعاليات اللاعنف (مثل المسيرات) وبعض الاحتجاجات والالتماسات

الحياة، من قضايا النوع في الأسرة إلى المقاومة السلمية للاحتلال.

وعلى مدار الثلاث سنوات الماضية قام مركز الشرق الأوسط للديمقراطية واللاعنف بتدريب مستشارين في المدارس على اللاعنف وفض النزاعات وتطوير منهج لهم، ولقد أدى النزاع إلى بزوغ حاجة ماسة لوجود المستشارين، ومع ذلك فهناك مستشارين اثنان فقط لكل ثلاث مدارس، وتشارك مركز الشرق الأوسط للديمقراطية واللاعنف أيضا في تطوير منهج «القيم الأساسية» في مشروع مشترك مع الجامعة العبرية، ويركز المنهج على تعزيز القيم الأساسية في النظام التعليمي، وسيتم إدارة بعض من ورشات العمل مع الإسرائيليين الذين يقومون بعمل موازٍ.

إن استخدام الاحتلال الإسرائيلي للقوة المفرطة ضد الشعب الفلسطيني، وولادتي في زمن الاحتلال، جعلاني اتشرب الكثير من الأفعال العنيفة، فلقد كنت من بين أبرز قادة الانتفاضة الأولى، وذلك عزز أفكارتي تجاه العنف حتى أن ذلك أثر على علاقتي مع الآخرين، وتعرفت على مركز الشرق الأوسط للديمقراطية واللاعنف في الانتفاضة الثانية، ولم أؤمن باللاعنف في ذلك الوقت، ولكنني التحقت بدورة تدريبية أدارها المركز عن المقاومة البديلة، وقد تشاجرت مع المدرب، وهرور الوقت وبعد أن أدركت مفاهيم اللاعنف، اقتنعت أنني كنت مخطئ، واعتذرت للمدرب وبدأت في استيعاب مفاهيم اللاعنف التي هي الآن جزء من عائلتي، وأدركت أنه يجب علي أن أقوم بتغيير الحياة التي أتزعمها، والآن أعلم أنه يجب علينا، نحن الفلسطينيون، أن نسعى وراء طريقة أخرى للصراع خاصة وأننا أمضينا أكثر من أربعين عاما مستخدمين العنف دون جدوى، وأعلم أن استخدام الفلسطينيين للعنف جعلنا عنيفين في أعماقنا، وهذا يشكل خطرا على مرحلة بناء الدولة لأننا بحاجة لدولة ديمقراطية، والآن أصبح اللاعنف هو أسلوب حياتي وأنا فخور بذلك.

نور الدين شحادة، منسق في مركز الشرق الأوسط للديمقراطية واللاعنف في طولكرم

تعودت على الفرار من المدرسة، وكنت أتعرض للضرب من قبل أسرتي لإرغامي على الذهاب إلى المدرسة، ولقد استخدمت العنف ضد رفاقي في الصف، وخاصة أولئك الذين شعرت أنهم أفضل مني، وما أن المجتمع الذي ولدت وترعرعت فيه يقدس الأعمال الفردية البطولية، فإنني طمحت دون وعي لأن أصبح أحد أولئك الأبطال، وعندما أصبحت في سن المراهقة، أصبحت السياسة أو العنف السياسي بالأحرى جزءا من حياتي،



نشرة الهجرة القسرية ٢٦

أنواع الدعم لتنشئة اللاعنف وتوفير السبل والمجال أمامه للنمو والتقدم.

لوسي نسبية هي مؤسسة ومديرة مركز الشرق الأوسط للديمقراطية واللاعنف (www.mend-pal.org MEND) وكانت قد شغلت قبلها مركز مديرة المركز الفلسطيني لدراسة اللاعنف، وبريدها الإلكتروني: mend.lucy@gmail.com، lnusseibeh@yahoo.com

وهدم منازل الناس، ومنع المرضى من الوصول إلى الرعاية الطبية.

وهناك التزام متنامي من جانب بعض الإسرائيليين الشجعان للقيام بمجازفات حقيقية من أجل السلام، مثل رفضهم للخدمة العسكرية (التي لا تزج بهم في السجون فقط، ولكنها تضعهم على اللائحة السوداء مدى الحياة)، والمجازفة بعبور حواجز الجيش لنقل الطعام أو تقديم العلاج الطبي للفلسطينيين المقيدين بالقيود المفروضة على الحركة والتنقل.

ولكي تنجح عملية السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين، يجب أن تنجح على المستوى الشعبي، والالتزام بالعمل بأسلوب اللاعنف هو السبيل لتحقيق هذا النجاح، والمطلوب الآن هو تقديم كافة

وأن تعطي مصداقية للأصوات التي تتحدث جهارا ضد استغلال النزاع.

إنسانية مشتركة

توجد لدى الإسرائيليين أيضا مشاكل اقتصادية واجتماعية، بالإضافة إلى الرعب الذي يعيشون فيه. ومن الضروري إذا كنا نرغب في النجاح في تحقيق سلام مستديم أن نعمل على مخاطبة مخاوفهم وعلى إزالة الأيماط السلبيه السائدة مثل الاعتقاد بأن الفلسطينيين إرهابيون والعمل على إعادة غرس وجهة النظر الإنسانية عن الفلسطينيين لعامة الإسرائيليين، وإذا سمح المزيد من الإسرائيليين لأنفسهم برؤية الفلسطينيين كبشر، فسيجدون أنه من الصعب جدا عليهم إطلاق الرصاص على الأطفال،